حجة الوداع

وفود العرب تفد على المدينة

كان للصيحة التى نادى بها علىّ يوم الحج الأكبر أثرها الطبيعى فى بقايا المشركين من العرب فى الجزيرة العربية، فقد أحس هؤلاء بعد أن أسلمت الجزيرة أنهم أصبحوا كالشَّجَا فى الحَلْق، أو كالشذوذ فى القاعدة، وأنهم إن ظلوا مقيمين على شركهم فلابد أن تكتسحهم قوة الإسلام كما يكتسح السيل الغُثاءَ، وأن من الخير لهم أن يدخلوا مع الداخلين تحت راية الإسلام، فَيحْقِنوا بذلك دماءهم ويحموا مصالحهم، ويستمتعوا بما يستمتع به أتباع هذا الدين من مظاهر الرحمة الشاملة، التى لا يستمتع بها فرد دون فرد، ولا يحتكرها قوى دون ضعيف.

كذلك أحس أهل الكتاب من نصارى العرب بما أحسَّه هؤلاء المشركون ورأوا أن من الخير لهم أن يستظلوا براية الإسلام ويحتموا بحمايته، فأقبلت الوفود من هؤلاء وهؤلاء على

المدينة، تعلن خضوعها للإسلام ودخولها تحت لوائه.. فأما المشركون فأسلموا ودخلوا فى زمرة المسلمين، وأما أهل الكتاب فمنهم من أسلم فدخل فى زمرة المسلمين، ومنهم من بقى على دينه ورضى بأن يدفع الجزية، فدخل بذلك فى أمان المسلمين وحمايتهم.

الرسول يكرم الوفود ويجاريها فى بعض عاداتها

وكان رسول الله ﷺ يستقبل هؤلاء الوفود مغتبطًا بمَقْدَمِها، فيضيِّفها ويكرمها، ويُنزِّلها على الرحب والسعة فى دُور الضيافة بالمدينة، ويبسط لها كل ما تريد أن تقف عليه من أمور الإسلام، ثم يترك لها الخيار فى أن تُسْلم أو لا تسلم. فإذا أسلمت بايعها على الإسلام، وأقْطَعها أرضها وبلادها، وأمَّر عليها واحدًا منها أو رد عليها أميرها إن كان أهلا للإمارة، حتى إذا ما آذنت بالرحيل إلى بلادها أجازَها وودعها، وبعث معها رسولا يفقِّهها فى دينها، أو كتب لها كتابًا بما لها وما عليها، وما ينبغى أن تعلمه من شرائع الإسلام وسُنَنِه.

وكان صلى الله عليه وسلم يتلطف مع الوفود فيجاريها فى بعض عاداتها، ويتجاوز عما يبدر من بعض هفواتها التى يدفع إليها جفاء البداوة وخشونة الجاهلية؛ فقد جاءه وفد تميم فى وقت

الظهيرة، وكان صلى الله عليه وسلم قائلا[1] فى بيت من بيوته، فوقفوا فى المسجد ينادونه من وراء الحجرات: «يامحمد، اخرج إلينا».. وظلوا يصيحون به حتى آذاه صياحهم، ولكن ذلك لم يمنعه أن يخرج إليهم، وأن يسايرهم فيما طلبوا إليه من المفاخرة - جريًا على عادة العرب - فأذن لخطيبهم وشاعرهم أن يقولا، ثم رد عليهما بشاعر وخطيب من المسلمين حتى أفحمهم، وحتى قال قائلهم: «إن هذا الرجل لمُؤْتى له.. لخطيبُه أخطبُ من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا، ولهم أحْلم منا».. ثم لم يمنعه ذلك أن يُجيزهم[2] عند رحيلهم كما كان يجيز غيرهم من الوفود.

الرسول لم يكن يتسامح فى شىء قط مما يعارض مبادئ الإسلام أو تقاليده

على أن رسول الله - وإن تجاوز عن كثير من هفوات الوفود - لم يكن يسمح قط بأن يتعارض هذا التجاوز مع مبادئ الإسلام وعقائده؛ فقد أراد وفد ثقيف أن يعفيهم رسول الله ﷺ من أداء الصلاة، فأبى عليهم ذلك كل الإباء، فقبلوا أن يؤدوا الصلاة على أن يترك لهم «اللات» لا يهدمها ثلاث

(١) القائل: المستكن من الخبر فى وقت القيلولة.

(٢) يجيزهم: يعطيهم الجوائز.

سنين، فأبى عليهم، فقالوا: سنة.. فأباها عليهم، فما برحوا يسألونه حتى سألوه شهرًا واحدًا، فأبى أن يدعها لهم أجلا مسمًّى. فلما رأوا إصراره على هدمها سألوه أن يكفيهم مئونة هدمها بأنفسهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «أما كسر أوثانكم بأنفسكم فسنُعْفيكم منه، وأما الصلاة فلا خير فى دين لا صلاة فيه». ثم وجه معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شُعبة، فقاما بهدم اللات بين صراخ النساء وبكائهن.

وجاء وفد بنى حنيفة ومعهم مُسَيْلِمة الكذاب يدعى النبوة ويقول: «إن ترك لى الأمر من بعده اتبعته». فأقبل رسول الله ﷺ وفى يده قطعة من جريدة حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال له: «إن سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها». فلما عاد مسيلمة إلى بلاده كتب إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «من مسيلمة رسولِ الله إلى محمد رسول الله. سلام عليك، أما بعد، فإنى قد أُشْرِكت فى الأمر معك، وإن لنا نصفَ الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشًا قوم يعتدون».. فكتب إليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإن الأرض لله يُورثُها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين».

كذلك جاءه وفد من نصارى نجران يجادلونه فى شأن عيسى عليه السلام، فجعل رسول الله ﷺ يناقشهم ويبسط لهم ما أنزل الله تعالى عليه فى شأن عيسى. فلما رأى أنهم لا يبغون إلا الجدل دعاهم إلى المباهلة، وخرج إليهم ومعه ابنته فاطمة وزوجها على وابناهما الحسن والحسين، وطلب إليهم أن يأتوا بأبنائهم ونسائهم، ثم يقفوا جميعًا، ويبتهلوا إلى الله أن يجعل لعنته على الكاذبين من الفريقين. فلما رأوا منه ذلك خافوا على أنفسهم أن تنزل بهم نقمة الله فتستأصلهم، لأنهم يعلمون أن محمدًا على الحق وأنهم على الباطل، وصالحوه على أن يدفعوا الجزية، ويظلوا على دينهم.. وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ المُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ﴾[1].

وكما لم يتجاوز رسول الله ﷺ عن شىء مما يعارض عقيدة الإسلام، لم يتجاوز عن هفوة مما يعارض تقاليده، فقد جاءه وفد كِنْدَة فى ثمانين راكبًا، فدخلوا عليه المسجد وقد رجَّلوا

(١) سورة آل عمران الآيات ٥٩ - ٦١.

لِمَمهم[1] وتكحلوا ولبسوا ثياب الحرير. فلما رآهم رسول الله ﷺ في هذا المظهر الناعم قال لهم: «ألم تسلموا»؟ قالوا: بلى. قال: «فما هذا الحرير في أعناقكم»؟ فشقوه وطرحوه عن أجسامهم.

وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يعالج فساد التقاليد والعادات، كما يعالج فساد العقائد، حتى يكون المسلم مثلا كاملا في ظاهر أمره وباطنه.

رسل النبي إلى القبائل

وظلت الوفود طَوالَ السنة العاشرة تفد على المدينة من أنحاء الجزيرة، فتعلن دخولها في الإسلام أو تعلن ولاءها ورغبتها في أن تستظل بظله. فيبايع رسول الله ﷺ من يسلم منهم على الإسلام، ويتقبل ولاء من يوالي الإسلام ويدخل في حمايته من أهل الكتاب؛ ويبعث الرسل من أصحابه إلى القبائل في منازلها، يفقهونهم في الدين ويعلمونهم السنن والشرائع، كما يبعث معهم المصَدِّقين يجمعون الصدقات من المسلمين ويجمعون الجزية من أهل الذمة.

وانقضت السنة العاشرة في استقبال الوفود، ومضت أيامها

---

(١) اللمة: مجتمع شعر الرأس. وترجيل الشعر: تسريحه.

هادئة لا يعكر صفوها شغب ولا نزاع. إلا ما كان من قبيلة باليمن ظنت أنها تستطيع أن تقاوم التيار، فأرسل إليها رسول الله ﷺ من أخضعها من أصحابه. وهكذا جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا وتمت كلمة ربك الحسنى على جزيرة العرب، فصارت أرضها مباءة الإسلام ومُحضَنَه، وصارت عاصمتها كعبة المسلمين وقبلتهم.

اجتماع المسلمين من أنحاء الجزيرة ليأتموا بالرسول فى مناسك الحج

كان لابد - وقد خلصت مباءة الإسلام للإسلام - أن يجتمع المسلمون من أقاصى الجزيرة وأدانيها فى عاصمتهم، ليعقدوا أول مؤتمر خالص لهم. وكان لابد أن يكون هذا المؤتمر الجامع تحت زعامة رسولهم ومرشدهم، ليهتدوا بهديه، ويستضيئوا بنوره، ويأخذوا عنه مناسكهم، وليكون هذا المؤتمر نموذجًا لهم يسيرون على منهاجه، فيما يعقدون بعد ذلك من مؤتمراتهم حول البيت العتيق، وفيما يعقدون عدا ذلك من مؤتمرات أخرى فى غير هذا المكان، لتوحيد كلمتهم، وجمع شتاتهم، وسد ما تحدثه الفتن والأيام من ثَغَرات فى صفوفهم.

كان لابد للمسلمين من هذا الاجتماع، وكان لابد أن يَتَلقوْا

أصوله وقواعده عن رسول الله ﷺ وأن يسمعوا منه كلمة جامعة عن هذا الدين الذى جاءهم به، يتعرّفون بها حقائقه ويتفهمون أغراضه، ويتخذونها دستورًا لهم فى حياتهم، وجُنَّة يعتصمون بها عند الزلل، ويسترشدون بها عند الضلال.

من أجل ذلك عزم رسول الله ﷺ على أن يحج بالمسلمين فى عامه ذاك. فلما أهل ذو القَعدة أذَّن فى الناس بالحج وأخذ يتجهز له، فأخذ الناس يتجهزون ويفدون على المدينة من كل صَوْب، حتى اجتمع بها خلق كثير لا يكاد يحصيهم العد، قيل: إنهم تسعون ألفًا، وقيل: مائة وأربعة عشر، وقيل: أكثر من ذلك. وقد أقبل هذا العدد الكثير من مشارق الأرض ومغاربها، ومن أقاصى الجزيرة وأدانيها، ليأتموا برسول الله ﷺ ويأخذوا عنه مناسك حَجهم وعُمرتهم. وكان هناك فى مكة جموع من المسلمين لا يقلون فى عددهم عن جموع المدينة، ينتظرون كذلك أن يأتموا برسول الله ويعملوا بعمله.

فلما تجهز رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خرج من المدينة ظهر يوم السبت، لخمس ليال بَقِينَ من ذى القعدة سنة عشر، ومعه أزواجه وأهل بيته وعامة المهاجرين والأنصار، ومن شاء الله من قبائل العرب وأخلاط الناس، وساق من الهدى مائة بَدَنَة. فلما وصل إلى ذى الحُلَيفة صلى بها العصر صلاة

المسافر، وأحرم بالحج والعمرة فى إزار ورداء صُحاريَّين[1] - وقيل: أحرم بالحج مفرَدًا - ثم دعا بالهدْى فأشْعَره وقَلَّده، وأمر من كان معه هدى أن يُهِلّ كما أهَلّ[2]، ففعل الذين ساقوا الهدى معهم كما فعل رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

ركب السلام

وركب رسول الله ﷺ ناقته، فلما استوى عليها وهمت به قائمة أهل ملبِّيًا: «لَبَّيكَ اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك»!! فصاح الناس يلبون عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه، وتجاوبت الأصداء بأصواتهم تدوى فى الفضاء الواسع، وانطلق الحشْد الكبير يقطع الصحراء سعيًا إلى مكة، وسالت الأودية والروابى بجموع لا يحدها الطَّرف، يحدوها الشوق ويدفعها الحنين إلى البيت العتيق. وكلما صعدوا شَرَفًا من الأرض أو هبطوا واديًا، أو نزلوا منزلا، أو صلَّوْا صلاة، أو لَقُوا ركبًا، أو رأوْا

---

(١) نسبة إلى صُحار، إحدى بلاد اليمن. وقد يكون نسبته إلى الصُّحْر، وهو غُبْرة فى بياض يميل إلى الحمرة كلون «الدمور» الآن.

(٢) أصل الإهلال أن يرفع الحاج صوته بالتلبية، ثم استعمل بمعنى الإحرام بالحج أو بالعمرة، وذلك لأن المحرم يرفع صوته بالتلبية بمجرد إحرامه.

مظهرًا من مظاهر الطبيعة.. انطلقت أصواتهم تَعِجُّ بالتلبية وتُهل بالتوحيد.

هكذا انطلق الركب العريض يسير سير المطئن الآمن، الذى يبغى الطمأنينة والأمن لكل شيء، ويَنشدُ السلام والوئام لكل حى.. انطلق يسير وشعاره الأمان والسلام لكل ما فى الوجود، فهو لا ينوى غدرًا بأحد، ولا يضمر شرًّا لمخلوق وهو من أجل ذلك لا يحمل سلاحًا، ولا يؤذى حيوانًا ولا يَهيج طيرًا، ولا يَعْضُد[1] شجرًا، ولا يتلف زرعًا، ولا ينال أحدًا من خلق الله بالأذى والشر.

هذا ركب السلام فى الأرض، يسير فيها آمنًا مطمئنًّا، وينشد الطمأنينة والأمن لكل ما حوله، فالحيوان حوله آمن، والطير حوله آمن، والشجر حوله آمن، والناس حوله آمنون.. والهدف الذى يرمى إليه هو الأمان والسلام، والغاية التى يسعى إليها هى التضامن والوئام، والطابع الذى يَتَّسم به هو الأخوة المتجانسة، التى تساوت فيها الرءوس، وتجاوبت النفوس، وتوحدت الأهداف، وتماثلت المقاصد.. هو الأخوة الكريمة، التى تجردت عن نوازع الشهوات، وترفعت عن فوارق الطبقات، فلا

---

(١) لا يعضد: لا يقطع.

رفَثَ ولا فُسوق، ولا جدال ولا خصام، ولا أسود ولا أبيض، ولا غنى ولا فقير.. هو الأخوة الخالصة فى الله، أساسها المحبة، وزادها التقوى، وغايتها رضوان رب العالمين.

* * *

على هذا الأساس ظل الركب يسير، وإلى هذه الغاية ظل يسعى، حتى قطع الطريق إلى مكة، فوصلها فى غروب اليوم الرابع من ذى الحجة، فبات رسول الله بذى طُوًى، ثم أصبح فاغتسل ودخل مكة نهارًا. فلما رأى رسول الله البيت رفع يديه ثم قال: «اللهم زِدْ هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا ومهابة. وزد من عظّمه - ممن حجه واعتمره - تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة وبرًّا»!! ولما دخل المسجد بدأ بالطواف حول البيت فطاف على راحلته سبعًا، ثم انتهى فصلى ركعتين خلف المقام، ثم خرج على راحلته فسعى بين الصفا والمروة؛ فلما انتهى من الطواف والسعى، أمر من لم يسق الهدى من المسلمين أن يتحلل من إحرامه إلى يوم التَّروية، وهو اليوم الثامن من ذى الحجة، ثم يُهل بالحج من ذلك اليوم عند خروجه إلى «مِنًى».

خطبة الوداع

وأقام صلى الله عليه وسلم بمكة حتى يوم التروية. فلما زاغت

الشمس[1] فى ذلك اليوم ركب إلى منى فبات بها، ثم أصبح فصلى بها الصبح، ثم سار إلى «عرفة» حين رأى الشمس قد طلعت فلما صار ببطن عرَفة وقف على راحلته فخطب فى الناس خطبته الجامعة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[2]:

«أيها الناس، اسمعوا منى أبين لكم، فإنى لا أدرى: لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدًا..

حرمة الدماء والأعراض والأموال

«أيها الناس، أتدرون فى أى شهر أنتم، وفى أى يوم أنتم، وفى أى بلد أنتم»؟ قالوا: "فى يوم حرام، وشهر حرام، وبلد حرام" قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، إلى أن تلقَوْا ربكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم.. ألا هل بلغت»؟ قالوا: "نعم". قال: «اللهم اشهد»!..

حرمة الربا والأخذ بالثأر

«ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

---

(١) زاغت الشمس: مالت من الظهر إلى ناحية الغرب قليلا.

(٢) لاءمنا بين الروايات فى تجميع هذه الخطبة، ولم نخرج فى مجموعها عن نص كلامه، صلى الله عليه وسلم.

ألا وإن كل ربًا فى الجاهلية موضوع، وإن لكم رءوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون؛ قضى الله أنْ لا ربا، وإن أولَ ربًا أبدأ به ربًا عمى العباس بن عبد المطلب.. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث[1].. ألا هل بلغت»؟ قالوا: «نعم». قال: «اللهم اشهد»!.

حرمة الأشهر الحرم

«أيها الناس، إنما النَّسِيءُ[2] زيادة فى الكفر، يُضَلُّ به الذين كفروا، يُحِلونه عامًا ويحرمونه عامًا لِيُواطِئُوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله؛ ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا، منها أربعةٌ حُرُم، ثلاثة متوالية وواحد فرد: ذو القَعدة وذو الحِجة والمحرم، ورجب - الذى بين جمادى وشعبان - ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم، ولا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض.. ألا هل بلغت»؟ قالوا: «نعم». قال: «اللهم اشهد»!

---

(١) كان مسترضعًا فى بنى ليث فقتلته هذيل.

(٢) كان العرب يبادلون بين الأشهر الحرم، فيحلون بعضها عامًا ويحرمونه عامًا، تبعًا لأهوائهم.

حقوق النساء

« أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقًّا، وإن لكم عليهن حقًّا.. فعليهن ألا يُوطِئْنَ فُرُشَكم أحدًا، ولا يُدخلن بيوتكم أحدًا تكرهونه إلا بإذنكم، فإن فعلْن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع، وأن تضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساء عندكم عوَانٍ لا يملِكْن لأنفسهن شيئًا، وإنما أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله. فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرًا.. ألا هل بلغت »؟ قالوا : « نعم ». قال : « اللهم اشهد »!..

أخوة ووحدة ومساواة

« أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه.. أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد؛ كلكم لآدم، وآدمُ من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى.. ألا هل بلغت »؟ قالوا : « نعم » قال : « اللهم اشهد »!..

ضرورة الاعتصام بالكتاب والسنة

«أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يُعبَد بأرضكم هذه، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقِرونه من أعمالكم، فاحذرُوهُ على دينكم.. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، أمرًا بَيِّنًا: كتاب الله وسنة نبيه.. وإنكم ستُسألون عني، فما أنتم قائلون»؟ قالوا: «نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصَحت».. فجعل يشير بأصبعه السبابة إلى السماء ثم إلى الناس وهو يقول: «اللهم اشهد!.. اللهم اشهد»!..

ثم قال: «فلْيبلِّغ الشاهدُ منكم الغائب، فلعل مَن يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه».

وكان ربيعة بن أمية بن خلف واقفًا تحت صدر الناقة، يردد قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكان صَيِّتًا جهير الصوت، كلما قال رسول الله ﷺ كلمة صرخ بها ربيعة في الناس.

مناسك الحج

فلما انتهى رسول الله ﷺ من خطبته أمر بلالا فأذن

للصلاة، وجمع رسول الله بين الظهر والعصر جمع تقديم، ثم ركب ناقته حتى وقف بها عند الهضاب من عرفة، وظل يدعو ويستغفر حتى غابت الشمس وذهبت صفرتها من السماء. ثم أفاض من عرفات، وأفاض الناس معه إلى «المُزْدَلِفة»[1]. وكان صلى الله عليه وسلم يوصى الناس بالسكينة والرفق فى السير، وألا يغلب قويُّهم ضعيفَهم.

فلما وصل إلى المزدلفة جمع بها المغرب والعشاء جمع تأخير، ثم بات بها، ثم أصبح فصلى بالناس صلاة الفجر، ثم ركب ناقته وأتى «المشعر الحرام»[2] فوقف يدعو ويكبر ويهلل حتى أسفر الصبح وبان النهار، ثم دَفَع[3] من المشعر الحرام إلى منى قبل أن تَشْرُق الشمس، وهنالك استقبل «العَقَبة الكبرى»[4] فرمى بها سبع حَصيَات كان قد جمعها من المزدلفة. ثم ذهب إلى المَنْحَر[5] فنحر بيده من الهدى ثلاثًا وستين بَدَنة، وأمر على بن أبى طالب فنحر باقيها.

ثم أحَلَّ صلى الله عليه وسلم من إحرامه، فحلق رأسه،

---

(١) المزدلفة: مكان بين عرفات ومنى.

(٢) المشعر الحرام: مكان بين المزدلفة ومنى.

(٣) دفع: خرج.

(٤) العقبة: مكان رمى الجمار وهى ثلاث عقبات: الكبرى والوسطى والصغرى.

(٥) المنحر: المكان الذى يذبح فيه الهدى.

وقص أظفاره، وتطيَّب[1]، ولبس ثيابه، وعاد إلى كل ما كان فيه من الحل قبل إحرامه، ونادى مناديه فى الناس: «إنها أيام أكل وشرب وحِلّ».. واستمر صلى الله عليه وسلم يرمى الجمار عند زوال الشمس من كل يوم، حتى مرت أي التشريق[2] الثلاثة. ثم حَدَر[3] إلى مكة فودع البيت، ثم انصرف راجعًا إلى المدينة.

بهذه الحجة كمل دين الله وتمت نعمته على عباده

كانت هذه الحجة هى الحجة الأخيرة التى ودع فيها رسول الله ﷺ الناس، وسميت من أجل ذلك «حَجة الوداع»، وقد سميت كذلك «حجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة التمام»؛ لأنه ﷺ لم يحج من المدينة غيرها، ولأنه ذكر للناس فيها ما يَحِل وما يَحْرُم، وبلّغهم شرع الله فى الحج قولا وفعلا، ولم يكن بقى من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بيّنه؛ فلما بين لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه كمُل بذلك دين الله وخُتمت رسالاته. فأنزل على رسوله وهو واقف بعرفة قوله

---

(١) تطيب: تعطر برائحة طيبة.

(٢) أيام التشريق: هى اليوم الثانى والثالث والرابع من أيام عيد الأضحى.

(٣) حدر: نزل.

تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[1].

وبهذا تمت كلمة الله عز وجل، وانتهت مهمة رسوله، صلى الله عليه وسلم، فأشهد الناس فى خطبته الأخيرة على أنه قد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة.. وأوصاهم أن يبلغ الشاهد منهم الغائب، ليكونوا شهداء على الناس يبلغونهم ما بلغهم رسولهم، كما كان الرسول شهيدًا عليهم يبلغهم ما يوحى إليه من ربه.

وأصبحت الدعوة أمانة فى أعناق المسلمين

وهكذا وضع الرسول ﷺ رسالته أمانة فى أعناق المسلمين، يتناقلونها فيما بينهم جيلا بعد جيل، ويتواصَوْن بالمحافظة عليها والعمل بها والجهاد فى سبيلها، حتى تعم جميع أقطار الأرض وتشمل كل أرجائها، ويجتمع البشر كله على الدين الكامل، ويتحقق الغرض الذى أراده الله لعباده من الرسالة الخاتمة، فيعيش الناس فى ظلها آمنين، وهو ما ترمى إليه الآية الكريمة من قوله سبحانه :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ

---

(١) سورة المائدة الآية ٣.

اجْتَباكم وما جَعل عَليكمْ فى الدين مِنْ حَرَج مِلَّةَ أَبيكُمْ إبْرَاهِيمَ هو سَمَّاكمُ المسْلمِين مِنْ قَبْلُ وفى هذَا لِيكونَ الرَّسُولُ شَهيدًا علَيْكُمْ وتكُونُوا شهداء علَى النَّاسِ؛ فأَقيمُوا الصَّلَاة وآتُوا الزَّكاة واعْتَصِمُوا بالله هُو مَوْلَاكُمْ فنعْمَ المَوْلَى ونعْم النَّصِيرُ﴾[1].

(١) سورة الحج آيتا ٧٧، ٧٨.